

الشيخ حبيب بن طالب الكاظمي

حدود ١٢٠٠ - بعد ١٢٦٩ هـ

حدود ١٨٧٦ - بعد ١٨٥٣ م

هو الشيخ حبيب بن طالب بن علي بن احمد بن جواد، الكاظمي المسكن، العراقي الموطن، العربي المحتد، المكي الأصل، يرجع به نسبه إلى بني شيبه المكيين سدنة البيت الحرام بمكة المكرمة.

ولد في الكاظمية في اوائل القرن الثالث عشر الهجري، ونشأ في مسقط رأسه، نشأة طلاب العلوم الدينية، فدرس ما كانت تستدعيه مناهج الدروس المقررة يومذاك من كتب وعلوم، حتى نال منها ما رام، واهتم اهتماماً بعلم الرجال فألف فيه كتاباً.

أحبَّ الشعر منذ نعومة أظفاره، ومارس نظمه منذ أوائل صباه، وأجاده وهو في ريعان الشباب، حتى أصبح أستاذاً مدرسة أدبية في الكاظمية، تخرج فيها لفيف من الشعراء، وفي مقدمتهم الشيخ جابر الكاظمي.

وصفه الشيخ محمد مغنية العاملي فقال: "الشاعر المفلق الذي اذا خطب أعجب، واذا انشد أطرب، لم أر في عصري أفكه من هذا الشاعر المجيد، وكان أسرع الناس بديهة، وأذكى قريحة، رأيتُه مراراً لا يتوقف في كتابة ما أراد من الشعر والاملاء، سريع البديهة، حسن المحاضرة، صاحب أجوبة مسكته، جزل الكلام، إذا تكلم أعجب كل سامع، ينشئ القصيدة الطويلة في الوقت القصير، وشعره كثير لا يكاد يحصى، من السهل الممتع".

سافر إلى خارج العراق فراراً بكرامته وعزة نفسه من مضايقات المجتمع وملاحقاته، وفي ذلك يقول:

أبى أن لا^(١) يقيم بدار نلٍ ولا يدنو إلى طرق الدنيا
إذا ضاقت به أرض قلاها ولو ملأ النضار له الركايا
وليس بمعجبٍ خوض الفيافي إذا اعتاد الفتى خوض المنايا

^(١) أتى الشاعر ب (لا) لإقامة الوزن.

فقصد ايران، وخرج لتوديعه اصدقائه وطلاب مدرسته الادبية، وعلى رأسهم الشيخ جابر الكاظمي، الذي كان يتمم بهذين البيتين:

أودِّعكم وأودِّعكم فؤاداً أباي الا المسير مع (الحبيب)
بقطعكم الفجاج به قطعتم من الدنيا وزهرتها نصيبي

و غادر الشيخ حبيب ملاعب صباه ومراتع شبابه في الكاظمية وبغداد وهو يترنم بهذه الأبيات التي سجل فيها شجونه أبلغ تسجيل:

وقد تمنع الأيام مثلي حقوقه وتعطي بليد القوم ما قد تمنّاه
ولي آية في الصبر لو أنها بدت لأيوب لم يشك المهيمن بلواه
تغربت عن بغداد لا عن ملالة ولكن للانسان ما قدر الله

وفي ايران زار الامام علي بن موسى الرضا (عليه السلام)، ثم توجه بعد ذلك إلى اصفهان، فلقى كل تقدير واحترام، واستقبل بكل حفاوة وتبجيل. ولكنه سئم المقام في ايران، فشدّ الرحال إلى لبنان، حيث يربض جبل عامل - جبل العلم والأدب- وما انتهى إلى هناك حتى اتصل بفقهاء تلك المنطقة وشعرائها وامرائها ورجال الدولة فيها، ولقي من حفاوتهم وترحيبهم الشيء الكثير، وأدهشه جداً جمال تلك البقاع وما أضفى الله عليها من حسن وسحر وابداع، فاندفع يتغزل بهذه الآيات بقصائده السائرات.

وهاج به الحنين إلى العراق بعد حين من المكث هناك، فترك لبنان خلسة بدون علم إخوانه وأصدقائه، وتوجه إلى وطنه لتجديد العهد بأهله وزملائه وأحابيه، ثم عاد بعد لأي غير طويل إلى بلاد عامل للمرة الثانية، واستقبل بكل حفاوة وترحاب من سائر اصدقائه وعارفي فضله وأدبه، وفي مقدمتهم زعيم البلاد الامير حمد البيك.

وعلى الرغم من كل ذلك التقدير والتكريم والاختلاط الكامل بالمجتمع وزعمائه ومفكره، فانه لم يفتأ يذكر بغداد والعراق، ويحنّ إلى أجدانه وإخوانه، فقال:

أهيل الكرخ لي قلب معني أسير في يد الأشواق عاني
وأين حشاشتي مني ولبي هما عني - وحقك - ظاعنان
أمن حق المروءة أن تركتم فؤادي فيكم رهن الأمان

وبعد سنة ١٢٦٩هـ، عاد الشاعر إلى العراق مرة أخرى، وبعد عودته بقليل انتقل إلى رحمة الله^(٢). ورثاه تلميذه الكاظمي بقصيدة مطلعها:

إلى كم تصوب المنايا كروبا وتدلي الرزايا علينا خطوبا
وكم تدّرينا ليوث الردى ونلفي لها كلّ يوم وثوبا
فترعب أسد الشرى أسده وتملأ قلب البرايا وجيبا
إلى ان يقول في آخرها:

أيا مَنْ رمتَ عن رزئه سلواً يعود فؤادي رقيباً
مضيتَ وانت حبيب الفؤاد أبعدك يلفي فؤادي حبيباً؟
سقاك سحاب الرضا صفوه اذا مقلّة الدهر أبدت نضوبا

شعره:

ورد في موسوعة البابطين: "تناول في شعره وصف رحلاته وأشواق غربته، فكان هذا مجالاً لإظهار الخصوصية، وتأكيد الذات، والاقتراب من الواقع. أما قصائده الأخرى ففي مديح آل البيت، ومدح أشياخه ورثائهم، ومدح كبراء لبنان ومراسلة الأصدقاء. وفي كل هذه الموضوعات يحرص على قالب التقليدي والبناء الماثور، على أنه قد يتغزل أو يرسم صورة تهكمية فيخرج على المتوقع الذي يألفه القارئ".

وقال الشيخ محمد حسن آل ياسين: "وخلاصة ما ترشدنا اليه النظرة الفاحصة في مجموع ما عثرنا عليه من شعر هذا الشاعر، انه كان قوي السبك، محكم الأسر، جزل الألفاظ، حسن الانتقاء، وهو في كل ذلك يعكس ما طبع عليه الأدب - والشعر - في القرن الماضي من جزالة ورصانة واحكام".

وله من قصيدة في أهل البيت عليهم السلام:

بني النبي لكم في القلب منزلةً بها لغير ولاكم قطّ ما جنا
يلوموني الناس في تركي مديحكم وكم زجرتُ بكم من لامني ولحا
عذراً بني المصطفى ان عنكم جمحت قريحتي وهي مثل الزند مقتدحا
فلا أرى الوهم والأفهام مدركة ما عنون الذكر من اسراركم مدحا
سبقتم الناس في علم ومعرفة والأمر تمّ بكم ختماً ومفتحا

(٢) شعراء كاظميون: ١/١٢٥-١٨٤.

وقال من قصيدة يرثي الحسين (عليه السلام)، وذلك في سنة ١٢٥٠هـ:

خَلَّ النَّسِيبَ فَلَسْتُ بِالْمَرْتَادِ
مَالِي وَكَاعْبَةِ تَكْلَفِي الْهُوَى
دَعْنِي وَفَيْضِ مُحَاجِرِي فَلَقَدْ غَدَتِ
وَإِذْكَرُ مِصَابِ الطَّفِّ فَهِيَ رِزِيَّةٌ
يَوْمَ أَصَابَ الشَّرْكَُ فِيهِ حِشَا الْهَدَى
يَوْمٌ غَدَا فِيهِ عَلِيٌّ رَغْمَ الْعَلَا
يَوْمَ رُمِي سَبْطُ النَّبِيِّ بِعَصَبِيَّةِ
آلَتِ عَلِيٍّ أَنْ لَا تَغَادِرَ لِلنَّبِيِّ
أَبَدَتْ خَفَايَا حَقِّهَا وَاسْتَظْهَرَتْ
نَشَرَتْ صَحَائِفَ غَدْرِهَا وَاسْتَقْبَلَتْ

لهو الحديث بزینب وسعاد
شنتان بین مرادها ومرادی
تقری ضیوف الهم نار فؤادی
فصم الضلال بها عری الارشاد
بمسدد الأضغان والأحقاد
رأس الحسين هدية ابن زياد
جبلت على ما سنن ذو الأوتاد
ي بقیة وأتت بكل فساد
في كربلا بضمائر الأغماد
وجه الهدى بصفائح وسعاد

وكتب إلى بعض إخوانه يعتذر عن عدم توديعهم عند سفره:

انني سألتُ فؤادي يوم بينهم:
ففرَّ مني مسلوباً تقطعه
لاطفته في التداوي في تجنُّبه
داوَيْتُهُ وَهُوَ مَوْجُوعٌ لِأَنْقَذَهُ

هل تستطيع لدى التفريق توديعا
يد الصبابة بالاشجان تقطيعا
ضُرَّ التفرق منظوراً ومسموعا
فلا تلمني اذا داويت موجوعا